البناء القيمي في دالية المقنع الكندي
نص من العصر الأُموي

م. د. محمد حسين محمود
جامعة تكريت/ كلية التربية/ قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدمة

إن الحديث عن البناء القيمي في دالية المقنع الكندي يعني الحديث عن "الأنموذج" الأخلاقي والاجتماعي الذي يصب في باب الأخلاق الإسلامية وآدابها، بعد أن رصدت لنا مظاهر الحرص على إرساء منظومة القيم الإسلامية والإنسانية، وأنَّ شرف الانتماء لهذا الدين لا يتم إلا من خلال صون هذه القيم وحراستها، فقدمت لنا قيماً، وأفكاراً، ومعاني نبيلة، فضلاً عن قيمها العاطفية، في بيئة تمتزج فيها القيم العربية الأصيلة من مروءة، ونبل، وكرم، ووفاء، مع ما تولد من قيم سلبية كخشية الفقر، والحمية الجاهلية التي تُسعر نار الحرب ثأراً لناقة أو بعير.

فجاءت القصيدة في سبيل تثبيت القيم الإيجابية، وتخليص النفوس من درن القيم الجاهلية المنفرة من خلال الحرص على وصل البناء القيمي بالمنبع الرباني؛ لذا فالقارئ لهذه الدالية سوف يُدرك قيم الإسلام الحقة في سماحته وإقراره للفضائل التي سادت قبل البعثة النبوية، كما يُدرك فطرية هذه القيم، وتعد هذه القصيدة من أطول القصائد التي كتبها شاعرنا، واشهرها، فقد جاءت في اثنين وعشرين بيتاً، وثانية جاءت في ثمانية عشر، والبقية بين السبعة وبيت واحد، ومعظم أشعاره جاء في الموضوع نفسه للقصيدة الدالية التي سندرسها، لتكرس القيم الخلقية بروح إسلامية

رفيعة. ومجموع ما جاء من أشعاره في ديوان شعراء أمويون للدكتور نوري حمودي القيسي هو واحد وثمانون بيتاً في ثلاثة عشر نصاً، بعد أن تفرقت أشعاره، ولم تجمع في ديوان شعر.

والقصيدة التي نحن بصددها دراستها تتحدث عن قيمة اجتماعية ترتبط بالمجتمع الذي كان يعيش فيه المقنع في ظل المجتمع القبلي الذي كان سائداً في المناطق التي كانت بعيدة عن المدن والعواصم؛ لذا جاء البحث ليسلط الضوء على ما تحمله القصيدة من قيم إسلامية واجتماعية، وسنقف عند حياة الشاعر، ومناسبة القصيدة أولاً بشكل موجز ثم ننتقل إلى النص والدراسة التحليلية للقصيدة، مع بيان أبرز أفكارها ومعانيها، وقيمتها العاطفية، فضلاً عن قيمتها الفنية من لغة، واسلوب، وخصائص، لننتهي بالخاتمة التي تكون بمثابة المعيار الحكمي على القصيدة.

والحمدُ للهِ تعالى أولاً وآخِراً.

النص:

يُعاتِبُني في الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّما ... دُيُونيَ في أَشياءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدا[١]
أَلَم يَرَ قَومي كَيفَ أُوسِرَ مَرَّة ... وَأُعسِرُ حَتّى تَبْلُغَ العُسْرَةُ الجَهْدا
فَما زادَني الإقتارُ مِنهُم تَقَرُّباً ... وَلا زادَني فَضلُ الغِنى مِنهُم بُعْدا
أَسُدُّ بِهِ مَا قَد أَخَلُّوا وَضَيَّعوا ... ثُغُورَ حُقوقٍ ما أَطاقوا لَها سَدَّا[٢]
وَفي جَفْنَةٍ ما يُغْلَقُ البابُ دونها ... مُكلَّلَةٍ لَحماً مُدَفِّقَةٍ ثَرْدا[٣]
وَفي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتيقٍ جَعَلتُهُ ... حِجَاباً لِبَيتي ثُمَّ أَخْدَمتُه عَبْدا[٤]
وَإِنَّ الَّذي بَيني وَبَين بَني أَبي ... وَبَينَ بَني عَمّي لَمُختَلِفٌ جِدَّا
أَراهُم إِلى نَصْري بِطاءً وَإِنْ هُمُ ... دَعَوْني إِلى نَصرٍ أَتيتُهُم شَدّا
فَإِنْ يَأكُلوا لَحمي وَفَرْتُ لُحومَهُمْ ... وَإِن يَهْدِموا مَجْدي بنيتُ لَهُم مَجْدا
وَإِنْ ضَيَّعوا غيبي حَفِظْتُ غُيوبَهُمْ ... وَإِن هُمْ هَوَوا غَيِّي هَوَيتُ لَهُم رُشْدا
وَلَيسوا إِلى نَصري سِراعاً وَإِن هُمُ ... دَعَوْني إِلى نَصيرٍ أَتَيتُهُم شَدَّا
وَإِنْ زَجَروا طَيراً بِنَحسٍ تَمُرُّ بي ... زَجَرْتُ لَهُم طَيراً تَمُرُّ بِهِم سَعْدا
وَإِن هَبطوا غَوراً لأَمرٍ يَسُؤْني ... طَلَعتُ لَهُم ما يَسُرُّهُمُ نَجدا
فَإِن قَدحوا لي نارَ زندٍ يَشينُني ... قَدَحْتُ لَهُم في نارِ مكرُمةٍ زَنْدا
وَإِنْ بادَهوني بِالعَداوَةِ لَم أَكُنْ ... أَبادُهُمْ إِلاَّ بِما يَنعَت الرُّشدا
وَإِنْ قَطَعوا مِنِّي الأَواصِرَ ضَلَّةً ... وَصَلتُ لَهُم مُنِّي المَحَبَّةِ وَالوُدّا
وَلا أَحمِلُ الحِقدَ القَديمَ عَلَيهِم ... وَلَيسَ كَريمُ القَومِ مَن يَحمِلُ الحِقدا
فَذلِكَ دَأبي في الحَياةِ وَدَأبُهُمْ ... سَجيسَ اللَيالي أَو يُزيرُونَني اللَّحدا
لَهُمْ جُلُّ مالي إِن تَتابَعَ لي غَنىً ... وَإِنْ قَلَّ مالي لَم أُكَلِّفهُمْ رِفْدا
وَإِنّي لَعَبدُ الضَيفِ ما دامَ نازِلاً ... وَما شيمَةُ لي غَيرُها تُشبهُ العَبْدا
عَلى أَنَّ قَومي ما تَرى عَين ناظِرٍ ... كَشَيبِهِم شَيباً وَلا مُردهم مُرداً
بِفَضلٍ وَأَحلام وجودٍ وَسُؤدُد ... وَقَومي رَبيع في الزَمانِ إِذا شَدّا[٥]

حياته وسيرته:

المقنع الكندي هو أحد شعراء العصر الأموي واسمه هو محمد بن ظفر بن عمير بن أبي شمر بن الأسود بن فرعان بن قبس بن الأسود بن عبد الله بن الحارث بن عمرو بن معاوية بن كندة بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. (٦)

ولد بوادي (دوعن) في حضر موت، ونعلم من لقبه أنه من اليمن وأنه ينتمي إلى قبيلة أمرئ القيس الشاعر الجاهلي. كما كان جد الشاعر "عمير" سيد كندة، وورث ابنه "ظفر" الرئاسة عنه.(٧) وقد نشأ المقنع في وسط هذا وعرف بالإنفاق وحب العطاء فأنفق ما تركه له والده حتى أصبح مديوناً.

أما القبيلة فهي كندة من اشهر واعرق القبائل اليمينة، موطنها حضر موت وفيها بيت الملك ولها السيادة حقباً من الدهر، لم تعبد في الجاهلية الأصنام ولم تقسم بالأزلام، وبرز من كندة أعلام كثيرون في شتى شؤون الحياة دونتهم كتب التاريخ والتراجم. وهو من الشعراء الذين غلبت عليهم ألقابهم وكان مقنعاً طول حياته، و" حسن الصورة فكان إذا دخل مكة دخلها متنكراً لجماله"(٨) وقال التبريزي في تفسيره لقبه: "المقنع الرجل اللابس سلاحه، وكان مغط رأسه فهو مقنع" وزعموا أنه كان جميلاً يستر وجهه، فقيل له: المقنع.(٩) وفي القاموس والتاج: "المقنع، المغطى بالسلاح أو على رأسه مغفر خوذة"(١٠) وقال أبو فرج الأصفهاني(٣٥٦هـ): "المقنع لقب غلب عليه؛ لأنه كان أجمل الناس وجهاً، وكان إذا سفر اللثام عن وجهه أصابته العين"(١١) ونشأ محمد بن عمير المقنع، فكان متخرقاً في عطاياه، سمح اليد بماله، لا يرد سائلاً عن شيء حتى أتلف كل ما خلفه أبوه من مال، فاستعلاه بنو عمه عمرو بن أبي شمر بأموالهم وجاههم. ولم يزوجوه أختهم لفقره ودينه وهوي بنت عمه عمرو فخطبها إلى إخوتها، فردوه وعيروه بتخرقه وفقره وما عليه من الدَّين. (١٢)

فكان المقنع الكندي يعرف بمكانته ومنزلته الرفيعة داخل عشيرته، وعاصر الوليد بن يزيد وامتدحه، ويمتاز شعره برصانة الأسلوب وانتقى الألفاظ والمفردات الشعرية بعناية فائقة تعرب عن تمكنه في صناعة الشعر وسمو مكانه بين شعراء العربية، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأدب من قصيدته المشهورة الذائعة الصيت التي يرد بها على بني قومه حينما عاتبوه على كثرة أنفاقه والاستدانة في سبيل ذلك "يعاتبني في الدَّين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمداً" وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية، وكان له محل كبير، وشرف، ومروءة، وسؤدد في عشيرته. وكانت وفاته في نحو سبعين هجرية، وليس صحيحاً ما جاء إنها كانت في سنة ١٢٨هـ.[١٣] بعد أن عاش ثلاثين عاماً في حضر موت بعيداً عن مركز الخلافة الأموية، وتيارات أحزابها، وكان بعيداً عن الثورات والعصبيات التي جمعت حولها الشعراء في ذلك العصر.

مناسبة النص:

إنَّ مناسبة القصيدة هو الرد على أقاربه بعدما عاتبوه على كثرة إنفاقه والاستدانة منهم، فهو الكريم الذي لا يرد سائل، فدافع عن نفسه في هذه القصيدة. وفي هذه القصيدة يُشخص الشاعر حالة سلبية في قبيلته وهي صفة البخل، ويؤطرها بإطار إسلامي لا قَبلي؛ لهذا انطلق الخطاب الشعري من قيمة إنسانية رفيعة تمجد الأخلاق الإسلامية وترسخها. وتعد الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة والتمسك بالخصال الحميدة مبدأ جوهرياً من مبادئ الإسلام وتعاليمه، فقد أحاط الإسلام المجتمع بمنظومة من القيم الخلقية، ووضع للأخلاق قواعد يتم على أساسها تربية النفس وتهذيبها منها: القناعة، والتوكل على الله، والصبر، والتقوى، والتزام الصدق، والوفاء، والحياء، والسخاء، كما أنه ذم النقائص الخلقية التي ينزلق إليها ذوو النفوس الضعيفة مثل: الحسد، والتكالب على موارد الرزق، والإقبال على الدنيا، والكبر،

والحقد، والجبن، والكذب، وسوء الظن بالنفس، وبالغير. وتنسب قسم من أشعاره إلى الشاعر الجاهلي حاتم الطائي، ومحرز بن شريك بن ذي الكلاع الحميري، وكانت بعض أشعاره أنشدت بين يدي عبد الملك بن مروان. (١٤)

ولعل صفة الكرم التي عرف بها، وسماحة اليد واستجابته لكل سائل، وإتلافه كلّ ما خلفه له أبوه من مال، كانت سبباً من أسباب اتجاهه الشعري الذي فجَّر في نفسه أسباب الدفاع عن هذا السلوك، وعوامل المواجهة لمن يلومه عليه فكانت قصيدته تجسد كرم نفسه وعلو خلقه، وهي فلسفة سبقه إليها حاتم الطائي، وعروة بن الورد وكل الرجال الذين آمنوا بفضيلة الكرم خلقاً، والجود عطاءً، ورفع الحيف عن كل محتاج واجباً إنسانياً. على أنَّ هذه الخصال كانت تكتمل بواجهة أخرى من واجهات الفروسية وهي الحديث عن فرسه الذي أعدَّه للمهمات، وخصَّه بفيض من كرَّمه موفّر عليه من يخدمه ويتفقده، زيادةً في الحرص عليه واستكمالاً لمستلزمات الفرسان.(١٥) وجاءت إحدى قصائده "الدالية" معبرة عن حاله بعد استدانته من أبناء عمّه.

وللبيئة أثرها الفاعل في خلق علاقات تعتمد مبدأ القوة في العدد والعدّة، فلإنسان الذي كُتب عليه أن يعيش في أعماق الصحراء بين الوحوش الضارية، وتحت لهيب شمس حارقة، هو في أمس الحاجة إلى هذا النوع من العلاقات الاجتماعية، وتكاتف الأفراد فيما بينهم لدرء الأخطار التي تحيط بهم من كل جانب.(١٦)

تحليل النص:

كما هو مألوف أنَّ الشاعر العربي يبدأ قصيدته أو موضوعه بمقدمة يستهل من خلالها وصف الأطلال، وآثار الدمن، وينتقل بعدها إلى لوحة الغزل ثمَّ موضوعه الرئيس كأن يكون مدحاً أو فخراً ...الخ، جرياً على عادة الشعراء في عصر ما قبل

الاسلام في استهلال قصائدهم بهذه المقدمة. فلم يكن مألوفاً أن يدخل الشاعر الى الغرض الرئيس دون مقدمة، لأن القصيدة ذات الموضوع الواحد يدخل إليها الشاعر بدون مقدمة، فالفكرة السائدة هو ضرورة البدء بها وعدم الحياد عنها؛ لكن المقنع الكندي سار بمنهج مغاير وخالف هذه السّنة، فبدأ قصيدته بمعالجة غرضه مباشرة الذي استهله بالحديث عن خصاله التي التزم بها، وكان "الدَّين" المحور الرئيس الذي بنيت على اساسه القصيدة، فأتت كمدخل للحديث عن خصال حسنة التزم بها الشاعر وآمن بها، وبالتالي ساقته إلى الدَّين، وكما هو معلوم أن الَّدين ليس مما يفتخر به الإنسان؛ بل هو ما قد تستدعيه ضرورات الحياة ومطالبها، والشاعر أشار في البيت الأول من القصيدة إليه قائلاً: **(يُعاتِبُني في الدَّينِ)** وكرر في عجز البيت الأول لفظة "الدَّين" في قوله: **(دُيُونيَ)** فهو مولع بتكرار الألفاظ، لتأكيد المعنى؛ فقوم الشاعر يلمونه لاستدانته، بينما يستدين ليكسبهم المدح.

ونجد الشاعر في البيت الثاني والثالث ومن خلال صيغة الاستفهام التي بدأها بـ**(أَلَم يَرَ قَومي)** فيندهش مما وجده من قومه؛ فهو ليس مبذراً كما يدعون، بل حين يتطلب منه الأمر أن يُسر فانه يسعى إلى فعل ذلك وحين يكون عكس ذلك فإنه يُعسر؛ لكن الشاعر يقر ويؤكد أن هذا الإقتار أو الفضل لم يرأب الصدع بينه وبين ابناء قومه في قوله: **(فَما زادَني)** ولم يخلق له معهم إلا البعد والجفاء، غير أن الشاعر يبين أن ما أوصله إلى هذه الحالة من العوز ليس الإسراف والتبذير على مصالحه الشخصية؛ بل هو حرص منه على ارجاع الحقوق وأدائها بعد أن بخل بها قومه؛ لذا فعمل على إبراز مكانة قومه من خلال سد الدَّين وليس العكس في قوله: **(أَسُدُّ بِهِ مَا قَد أَخَلُّوا وَضَيَّعوا)** وكيف لا وهو الكريم المستعد دوماً لاستقبال الضيوف وتجهيز أفضل وأفخم الموائد لهم: **(وَفي جَفْنَةٍ ما يُغْلَق البابُ دونها)** فهنا يصف لنا كبر حجم مائدة الطعام التي تقدم للضيوف حتى أنها تغلق الباب لكبرها؛ وهي دلالة

على الكرم ومن الأشياء التي تكسب الحمد، بعد أن صور لنا ما تحويه من لحم وثريد، أي مما لذَّ وطاب في قوله: **(مُكلَّلةٍ لَحماً مُدَفَّقةٍ ثَرْدا)** وليس فقط الكرم بإعداد القرى للضيوف فحسب؛ بل نجده في البيت الذي بعده قد أعد فرسه وربطه أمام داره، بعد أن جعله كالحجاب يخصه للمهمات، بعد أن هيأ لرعايته عبداً، واصفاً الفرس بأنه **(فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ)** أي كناية عن صمودها بوجه الأعداء.

وفي البيت السابع يعود الشاعر للحديث عن بني قومه وعمومته مُذكراً وعاقداً مقارنة بينه وبينهم ليكشف لنا الفرق الشاسع بينه وبينهم فيعقد موازنه تصب في باب المبادئ والقيم الاجتماعية التي ألفتها أُسرته، وقد ذكر تلك الفروق حين بين أنهم لا يسرعون إلى نجدته في المعارك وهو الذي لا يتوانى عن نجدتهم وخلاصهم والدفاع عنهم ضد الأعداء، وإنْ هم اغتابوه، ترفع عنهم **(فَإنْ يَأكُلوا لَحمي وَفَرْتُ لحُومَهُمْ)** هنا أورد الشاعر لفظة الأكل كناية عن الغيبة، وإن هم هدموا مجده؛ فإنه يصنع العكس يبني لهم مجداً يخلدُ ذكرهم **(وَإن يَهْدِموا مَجْدي بنيتُ لَهُم مَجْدا)** وإن لم يحفظوا سره، ولا يدافعون عنه في غيبته، فإنه يحفظ لهم سرهم **(وَإنْ ضَيَّعوا غيبي حَفظْتُ غُيوبَهُمْ)** وإن هم تمنوا له الضلال، وعدم الخير، فإنه يسدي لهم النصح والرشاد إلى الطريق المستقيم الذي يحقق لهم المنفعة والخير **(وَإن هُمْ هَوَوا غَيِّي هَوَيتُ لَهُم رُشْدا)** كما يقر الشاعر أنهم لا يسيرون له بنصر يعينه ويبنى له مجداً وعزاً **(وَلَيسوا إلى نَصري سِراعاً)** في حين نجده إذا ما دعوه إلى ما يحقق لهم النصر في المعارك؛ فإنه يستعد لذلك الأمر ويتهيأ له بكل اندفاع وحزم **(أَتيتُهُم شَدّا)** وإن هم تمنوا أن تحل عليه القهر والأحزان وسعوا لها **(وَإنْ زَجَروا طَيراً بِنَحسٍ تَمرُّ بي)** فإنه يتمنى لهم الخير ويسعى لذلك من خلال طير السعد، وبالتأكيد هذه تقاليد وعادات وأفكار جاهلية ترسخت لديهم **(زَجَرْتُ لَهُم طَيراً تَمُرُّ بِهِم سَعْدا)** وإن هم اردوا أن يهبطوا من مكانته في المجتمع **(وَإن هَبطوا غَوراً لأَمرٍ يَسُوئني)** فإنه يعمل

على رفع مكانتهم ولا يحقد عليهم **(طَلَعتُ لَهُم ما يَسُرُّهُمُ نَجدا)** وإن سعوا لإشعال نار الحقد وإثارة ما يعيبه **(فَإِن قَدحوا لي نارَ زندٍ يَشينُني)** فإنه في المقابل يوقد لهم نار كرمه، وجوده، ويفخر بهم وشتان ما بين النارين **(قَدَحْتُ لَهُم في نار مكرُمةٍ زَنْدا)** وإن هم بادره بالعداء ونصبوا له المكائد والمصائب **(وَإِنْ بادَهوني بِالعَداوَةِ لَم أَكُنْ)** فلا يلقون منه إلا تقديم الرشد والنصح لهم **(أَبادُهُمْ إِلاَّ بِما يَنعَت الرُّشدا)** وإن هم قطعوا صلة الأرحام وتبادل الزيارة وخلق جو الأُلفة **(وَإِنْ قَطَعوا مِنِّي الأَواصِر ضَلَّةً)** دون وجه حق ورشد؛ فإنه يصل ذلك البعد والكره والجفاء بالمحبة والمبادرة له **(وَصَلتُ لَهُم مُنِّي المَحَبَّةِ وَالوُدّا)**.

وبعد أن عدد خصال بني قومه من ابناء عمومته من خصال شنيعة في عدم تمني الخير له واغتيابهم وعدم دفاعهم عنه ...الخ، فهو لا يحقد عليهم أو ينتقم منهم بل يرى لموقعه الرفيع في قومه ما يربأ بنفسه من أن يقع فيما وقعوا فيه **(وَلا أَحمِلُ الحِقدَ القَديمَ عَلَيهِم)** لأنه كريم النفس وكبير القوم، وخصاله الحميدة هي مزروعة بداخله وتربى عليها ولن يحيد عنها حتى الموت **(فَذلِكَ دَأبي في الحَياةِ)** لذا فهو يبقى متعاوناً معهم حتى أن كان موقفهم سلبياً معه. ويتبرع بماله لهم في حالة الغنى **(لَهُمْ جُلُّ مالي إِن تَتابَعَ لي غَنىً)** وإن نفد ماله أو انتهى فهو لا يطالبهم بأن يعطوه شيئاً **(وَإِنْ قَلَّ مالي لَم أُكَلِّفهُمْ رِفْدا)** فلا يكلفهم بما يقوم به، وهو وبكل تواضع يقدم نفسه على أنه عبد للضيف؛ إذا ما حل في منزله **(وَإِنّي لَعَبدُ الضَيفِ ما دامَ نازِلاً)** أي الخادم للضيف وهو يتشرف بذلك ويعتز بهذه الصفة **(وَما شيمَةُ لي غَيرُها تُشبهُ العَبْدا)** ويؤكد هذه الصفة إذ هو يرفض أية صفة أخرى. وبعد أن استعرض الشاعر خصال بني قومه الشنيعة في مقابل صفاته الحميدة في عشرة أبيات يعود في البيتين الأخرين من القصيدة ليفخر ببني عمومته على الرغم ما ذكره عنهم من صفات سيئة، فيذكر أنهم يتفردون ويتميزون عن غيرهم من القبائل **(عَلى أَنَّ قَومي ما تَرى**

عَين ناظِرٍ) أي لم ترا مثلهم قبائل العرب، سواء في شيوخهم أو شبابهم **(كَشَيبِهِم شَيباً وَلا مُردهم مُرداً)** شبهاً لكرمهم وخيرهم ومجدهم ورفعتهم وشرفهم بين باقي القبائل **(بِفَضلٍ وَأَحلام وجودِ وَسُؤدُد)** فهم سند وعون لكل محتاج إذا ما حلَّ قحط **(وَقَومي رَبيع في الزَمانِ إِذا شَدّا)** ليقدم لنا بالنهاية صورة جميلة يختم بها القصيدة؛ وهي صورة: الإيثار، وصلة الرحم، وهما صفتان أكدهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في أحاديث كثيرة. منها: ٹ ڈ چ ذ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ چ الإنسان: ٨.

العاطفة والشعور:

نتلمس ومن خلال قراءتنا للقصيدة نبرة الحزن والألم التي جاءت واضحة منذ البيت الأول الذي بدأ فيه الشاعر قصيدته، غير أن هذا الحزن والألم الذي يعتصر قلب الشاعر لم يثلم عزمه وكبرياءه؛ بل سارع للرد على ابناء عمّومته، وإنْ كانت المواجهة غير منطقية، فهي مواجهة فرد لمجموعة؛ لذا فهي مواجهة عسيرة، وقد ساق لنا الشاعر البراهين والأدلة التي تبرئ ساحته، وتعلل الحالة التي وصل إليها. كما أن الشاعر يتكلم بمنطق الرئيس أو السيد، كيف لا وقد ورث الرياسة كابراً عن كابر.

لذا نجد أن تيار العاطفة كان شديداً متدفقاً بعد أن كان هادئاً منساباً في البيت السادس والأبيات التي تليه؛ إذ يقدم لنا معادلة صعبة وموازنة عسيرة لا يقوم بها إلا ذو قلب كبير، ونفس رفيعة مترفعة عن الأحقاد وحب الانتقام.

وهكذا فإن مخالفة العرف الجماعي السائد ليست سهلة، وأن الانتصار على النفس والهوى ليس يسيراً، وأن روح العفة، والشمم، والإيثار، والتضحية لا تجتمع إلا لمن وفقه الله تعالى إلى ذلك، فهو مختلف عن إخوته وبني عمه؛ بل أنَّ بوناً شاسعاً يفرق بينه وبينهم، وما يدلنا عليه قوله:

وَإِن الَّذي بَيني وَبَين بَني أَبي   وَبَينَ بَني عَمّي لَمُختَلِفٌ جِدّا

فنجد أنَّ المشاعر والعواطف واضحة قوية حتى البيت الأخير الذي يمثل قمة التواضع لدى المقنع، إذ يصف نفسه بأنه عبد لضيفه. كما نجد أن هذه العواطف متوازنة عند المقنع فهو يختم قصيدته باعتزازه بقومه، وأن ما ذكره فيهم من صفات لا يجرح شخصهم ولا يكلم مروءتهم، وهم كذلك شيباً وشباناً، والبيتان الأخيران يمثلان قيمة الإنصاف.

اللغة والاسلوب:

يكشف شعر المقنع الكندي عن شخصيته، فألفاظه تتمتع بالبساطة، والرصانة، فضلاً عن أسلوبه في اختيار الألفاظ والمفردات الشعرية، وتكراره لتلك الألفاظ لأجل تأكيد الفكرة وإيصال المعنى بأقرب صورة. فلغة المقنع هي أقرب إلى السلاسة منها إلى جزالة الألفاظ، وهي جلية وواضحة في أغلب ألفاظها ولا تخفى على القارئ.

وما يميز لغة الشاعر أيضاً هو تكراره للألفاظ لتأكيد المعنى المراد بيانه كما في قوله: " بيني وبين.. وبين" و"بني أبي، بني عمّي" و "مجدي، مجداً" و "طيري، طيراً" و "تمرّ بي، تمر بهم" و" قدحوا، قدحت" و "لي نار، في نار" و " الحقد، حقداً" و "مالي.. مالي" و "لعبد، العبدا" و" كشيبهم، شيباً" و "مردهم، مرداً".

كما نتلمس صورة أخرى للتكرار ومشابهة له، هي الجناس الذي هو من فنون البديع وقد جاء من خلال "الجناس الاشتقاقي" كما في قوله: الدّين، ديوني" و "لحمي، لحومهم" و "غيب، غيوب" و "هووا، هويت" و "زجروا، زجرت".

وفضلاً عن كون التكرار يفيد التأكيد من جهة، فإنه يحقق موسيقى داخلية متميزة، ومن الظواهر البديعية التي رصدناها في القصيدة؛ هي ظاهرة الطباق في الألفاظ جاءت في قوله: "أسدّ، أخلوا" و "هدموا، بنيت" و "ضيعوا، حفظت" و "بنحس، سعدا" و "قطعوا، وصلت" و "يشيننني، حمداً" و"جل، قل".

وقد استعمل الشاعر المظاهر الأسلوبية من خلال أساليب التوكيد في كثير من الأبيات، ومنها أسلوب الحصر في قوله: "وإنما ديوني" و "وأن الذي" و "وإني لعبد" و "على أن قومي".

وما يميز القصيدة أيضاً فضلاً عن التكرار والجناس، هو كثرة اعتماده على الشرط الذي جاءت بعده جملة فعلية فعلها ماض في سبعة مواضع وجاء مضارعاً في موضع واحد، وجملة إسمية في موضع واحد كذلك، ومعظم ما ورد من جمل الشرط كان لأجل تأكيد المعنى. كما نجد استعمال الشاعر للأساليب البيانية كالاستعارة في قوله: "ثغور حقوق" وكذلك أسلوب الكناية في قوله: "فرس نهد.. جعلته حجاباً" و "أخدمته عبداً" و "ما يغلق الباب دونها" و "مكللة لحما.. فإن يأكلوا لحمي" ففي المثال الأول والثاني الكناية هنا عن أهمية الفرس وهي كناية عن موصوف، وفي الثالثة كناية عن أن الطعام معد لكل قادم، وفي الرابعة كناية عن كرمه، وفي الأخيرة كناية عن الغيبة، وكلها كناية عن صفة.

الخاتمة:

قدمت لنا دالية المقنع الكندي بناء قيمياً مثالياً جسدت الأخلاق الإسلامية والقيم الاجتماعية العربية الأصيلة التي مثلها المقنع من إيثار، وصلة رحم، وكرم، وشجاعة، ونبذت في المقابل الصفات الرذيلة المعاكسة لها والتي مثلها في ابناء عمومته، في إشارة منه إلى ضرورة ما ينبغي أن يسود من سمات وخصال حسنة كي تكتمل فيهم الصورة النهائية التي ختم بها القصيدة وهي صورة الكرم والمروءة، في مشهد وتصوير عاطفي مؤثر لا يخلوا من نبرة الحزن المنساب في القصيدة، التي تماشت مع سلاسة الألفاظ وسهولتها، بعد أن وظف الأساليب البلاغية لتصب في اغناء القصيدة بالموسيقى الداخلية ليبين في النهاية لنا لغته الغنية والمفعمة بمختلف فنون البيان والبديع في خطابه أهله وبني عمه واعتذاره لهم في الدَّيون التي لحقت به، وأصبحت سبباً في توجيه اللوم له، وكان موقفه جريئاً في مناقشتهم وتوجيه النقد إليهم، مع أنه لم يرد انتقاصهم لأنّه لم يزل معتزاً بهم معترفاً بخصالهم وأفضالهم.

فكان الشاعر اللسان المعبر عن هموم القبيلة وعن تطلعاتها، فضلاً عن كونه الوسيلة المثلى، في التعبير عن المجتمع القبلي قاطبة، سواء أكان ذلك التمثيل بأيام الحرب أو أيام السلم.

للشاعر إذن مكانة مرموقة بين قومه، ويعبر في الغالب عن ذاته الفردية، ويتغنى بمشاعره ووجدانه، إلا أن ذلك يتجسد كما هو موجود لدى قومه إن تلميحاً أو تصريحاً، وهو يعكس من خلال تغنّيه بذاته كثيراً من المظاهر الاجتماعية السائدة، وينقل بذلك إحساس الجماعة من خلال هذه الذاتية.

فالفخر يبدو ذاتياً بحتاً حين يفخر الشاعر بنفسه وبآبائه وأجداده، ومثل هذا الفخر الذي ينطق من الذات الفردية وما يحيط بها من ذوات لها صلة بالرحم والقربى بين الشاعر وقومه، يتنامى فيها الإحساس الفردي ليصل إلى الإحساس الجماعي.

فصور في شعره صفات الفروسية بصفات النبل الأخلاقي وعلو الهامة، والشجاعة، قولاً وفعلاً بهدف الوصول إلى تحقيق وجوده الذاتي عبر الجماعة. فالشاعر هو مصدر هذا المجد الذي حظيت به قبيلته وليس العكس، وكأن القبيلة لم تكن ذات شأن من قبل، وبذلك فإن فضله عليها كبير، بصفته رافعاً من قيمتها ومكانتها من خلال كرمه وشجاعته. وحافظ الشاعر في قصيدته على ديمومة الفخر بالذات لإقناع قومه بمكانته بينهم وما يرتب عليها من تعظيم لشأن القبيلة. فالشاعر حاول إبراز القيم الإنسانية المثاليّة التي ترفع من مكانته وأبناء قبيلته.

هوامش البحث:

(١) تكسبهم حمداً: أي تجلب لهم الحمد.

(٢) ثغور حقوق: أي مواضع الحقوق ومعناها: ضيعوا الحقوق نفسها.

(٣) مكلَّلة: أي عليها من اللحم مثل الأكاليل. والدفق: الصبّ.

(٤) النهد: الفرس العظيم. جعلته حجاياً لبيتي: إنه نصب عينيه وأكبر همه.

(٥) شعراء أُمويون : د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥ : ٢٠٣/٤ – ٢٠٥.

(٦) ينظر: الأغاني: ٦٠/١٧، والشعر والشعراء، ابن قتيبة: ٧٢٩. وسمط اللآلي:٦١٥/١، والوافي بالوفيات، الصفدي: ١٧٩/٣. وشرح شواهد المغني: ١٠٤/٣.

(٧) ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ٧٢٩. وسمط اللآلي:٦١٥/١، والوافي بالوفيات، الصفدي: ١٧٩/٣. وشرح شواهد المغني: ١٠٤/٣.

(٨) معجم الأدباء: ياقوت الحموي: ١٠٧/٤. وينظر: أنوار الربيع، ابن معصوم: ٣٥٧/٢.

(٩) ينظر: شرح ديوان الحماسة: ١٠٠/٣.

(١٠) تنظر: مادتي (فرع) و(قنع) في التاج.

(١١)الأغاني: ٦٠/١٧.

(١٢) ينظر: شعراء أُمويون: ٤ /١٩٦– ١٩٧.

(١٣) تاريخ الشعراء الحضرميين: ٤٩/١، ومعجم الشعراء: ١٩١/٥.

(١٤) ينظر: شعراء أُمويون: ٤ /٢٠٦.

(١٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٦/٤ – ١٩٧.

(١٦) ينظر: جدلية القيم في الشعر الجاهلي: د. جمعة بوبعيو: ٥٤.

المصادر والمراجع:

١- الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١.
٢- انوار الربيع في أنواع البديع: ابن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان بالنجف الأشرف، ط١، ١٩٦٨.
٣- تاريخ الشعراء الحضرميين: العلامة السيد عبد الله بن محمد بن حامد السقاف العلوي، مطبعة حجازي، القاهرة، جزء١، ١٣٥٣.
٤- جدلية القيم في الشعر الجاهلي، رؤية نقدية معاصرة: د. بوجمعة بوبعيو، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
٥- سمط اللآلي: البكري ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ) تحقيق: عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦.
٦- شرح ديوان الحماسة: التبريزي، تحقيق: الشيخ محمد عبد القادر سعيد الرافعي، مطبعة التوفيق بمصر، ١٣٢٢هـ.
٧- شرح شواهد المغني: جلال الدّين السيوطي، طبعه المطبعة البهيه، مصر، سنة ١٣٢٢هـ.
٨- شعراء أُمويون: د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
٩- الشعر والشعراء: ابن قتيبة: ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ) تحقيق وشرح: احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٨٢.
١٠- معجم الأدباء: ياقوت الحموي: شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (٦٢٦هـ) مكتبة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦.

١١- معجم الشعراء: المرزباني: ابو عبيد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ) تحقيق: عبد الستار احمد فراج، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠.
١٢- الوافي بالوفيات: صلاح الدّين بن خليل بن ايبك الصفدي، تحقيق: احمد الارناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، جزء ٣، ٢٠٠٠م.